٩- أمِير القَرية

كنتُ علَى اتِّصال يَومي بمُديري التَّعْليم، نتحاورُ ونتشاورُ، ونتفاهمُ ونتناقشُ، وذاتَ يَوم حدَّثَني أحدُ مُديري التَّعليم عَن مُشكلَة وقعَت في إحدَى المَدارس القرويَّة، حيثُ قالَ: إنَّه في مدرَسة كَذا صارَت مشادةٌ ومخاصمةٌ، فقَد قامَ أحدُ المعلِّمين بزَجْر طَالب يُظهرُ شيئاً من التحدِّي، ويُبدي جانباً من الفُتُوَّة؛ فهُو ابنُ أَمير القَرية، وابنُ زَعيم البَلدة. وفي ذلكَ اليَوم تطاولَ ذلكَ الطَّالبُ، وتمرَّدَ عَلى المعلِّم، وقهقهَ في الفَصْل. وأمرَه المعلِّمُ بالخُرُوج لمُدير المدرَسة فامتنعَ، وزجرَه فتمادَى. وحينَئذ همَّ المعلِّمُ بضَربه، فقفزَ الطالبُ من الفَصل، وجرَى نحوَ

أَبيه يصرخُ ويشتكي، وصارَ يَبكي ويصيحُ ويحتالُ ليستثيرَ والدَه. وصادفَ في ذلكَ اليَوم أنْ كانَ عندَ وَالده ضيوفٌ، فقامَ الأبُ، ومَا قعدَ، وأرغَى وأزبدَ، وجاءَ إلى المدرَسة مُسرعاً؛ لينتصرَ لذَاته؛ فقَد أخذَتْه الحَميَّة وحرَّكَتْه العصبيَّةُ، ودفعَه الجَهلُ، وأعمَاه الحمقُ، ووصلَ الأبُ إلى المَدرسَة. ومَعلومٌ أنَّ المدارسَ القرويَّةَ صغيرةٌ، وسهلٌ الوصولُ إلَيها. ولهَذا اتَّجهَ ذلكَ الأعرابيُّ الأحمَقُ إلى الفَصل، ومعَه عَصاً غليظةٌ، ودفعَ بابَ الفَصل بقَدمه، وهمَّ بضَرب المعلِّم، وكانَ اللهُ في عَونكُم إخْوَاني المعلِّمينَ؛ فكَمْ تلقَونَ من عَنَت، وكَم تَجدونَ من بَلاء، وكَم تُصادفونَ من أحمقَ!

المهمُّ كـانَ المـعلمُ أقـوَى وأنشـطَ من ذلكَ الأَب، فأخذَ العـصَا، ورمَى بالأَب بينَ الطُّلاب. وكانَ الأبُ قصـيرَ القَامة، ويلبَـسُ إزاراً أقصرَ. وحينَ سقطَ انكشفَت عورتُه، فضَحكَ الطُّلابُ، وصفَّقُوا، وأنشَدُوا في عَـورَته وشَمتُوا بسَوءَته. وكانَ مَشهداً مُثـيراً، ومَنظراً مُضحكاً، وصارتْ ضجةٌ وحركةٌ، وسُـمعَ الصَّوتُ والجَلَبَةُ، فأسرعَ مديرُ المَدرسَة، والعاملـونَ معَه إلى ذلكَ الفَصل الذي صـارَ ميدانَ مُـصارعَـة، ومكانَ مُجَـالَدة، وفكُّوا الاشـتبـاكَ، وصـرفُوا الطلابَ، وأغلَقُـوا المدرسـةَ، وركـبَ مُـديرُ المَدرسَـة وذلـكَ المعلمُ سـيارتَهم، وهَربُـوا من القَرية؛ فـقَـد خافُـوا من

تطوُّر الأمُـور وسُـوء العَـاقـبـة! واتَّصلُوا بمُدير التَّـعليم في تلكَ المَنـطقَة، وأخـبَـرُوه بمَا حـدثَ وطلبُوا منه معالجةَ الأمْر.

وقَـد هدَّأهم مديرُ التَّـعليم، وطمـأَنَهم. وفي اليَـوم التَّـالي عـادُوا إلى المَدرسَـة برفْـقَـة مُـدير التَّـعليم الذي اسـتدعَى الأهاليَ وأمـيـرَ البَلدة، وأخـبـــرَهم أنَّه تقـــرَّرَ إغـلاقُ المَدرسَـــة، ونقْلُ المعلِّمينَ وتحويلُ طُلابهم إلَى القَريَة المجاورَة.

وقَـد انزَعجَ الأهَالي وأمـيـرُهم الأحـمقُ من هَذا القَـرَار، وأبدَوا أسفَـهم، وعاتَبـوا أميـرَهم، وترجَّوْا مديرَ التَّعليـم إبقاءَ المدرسَة. ولكنَّ مُديرَ التَّـعليم أخـبرَهُـم أنَّ هذَا قرارٌ صـعبٌ إلغـاؤُه؛

فللمعلِّم كرامتُه، وللمدرسَة حرمَتُها. وكيفَ يحصلُ هذَا التعدِّي من أَمير البَلدة، الحَارس للأمْن، والمسؤُول عَن كَرامة المعلمينَ؟!

ويقولُ مُديرُ التَّعليم: إنَّه رغبَ أنْ يُظهرَ لَهم أهميةَ المعلِّم والمَدرسة، فأخبرَهم أنَّ الموافقةَ بيَد ذلكَ المعلِّم، فإنْ تنازلَ أبقَينا المدرسةَ وإن أصرَّ على المطَالبَة بحقه نقلْنَا المدرسةَ، ورفعْنَا عَن تعَدِّي هذَا الرَّجُلِ إلى الجهَاتِ المختصَّة.

وعندَ ذلكَ توجَّهَ الأهَالي وأميرُ البَلدة للمعلِّم ولمُدير المَدرَسة، واسترضَوهُم ورجَوهُم أن يتوسَّطُوا لإبقَاء المدرَسة، وتعهَّدُوا باحترَام المدرَسة ورعَاية العَاملينَ فيهَا.

وتصالحَ الفَـريقَان، وهدأَت الأمـورُ، وصارَ للمَدرسَة هيـبتُها، وللمُـدرسينَ مكانةٌ واحترامٌ، وتأدَّبَ ذلكَ الأعـرابيُّ الأحـمقُ، وفهمَ حـدودَه وعرفَ قدرَه.

١٠- السيجارة

مع كلِّ صباح يجدُ المسؤولُ التعليميُّ، صوراً متنوعةً، وأخباراً متعددةً، فهذه المدرسةُ صارَ فيها ذلكَ النشاطُ، وتلكَ المدرسةُ حدثَ فيها ذلكَ الخلافُ.

إن المدارسَ في المملكة بالألوفِ، ولهَذا لا غَرْوَ أن يحدثَ فيها تبايُنٌ، وأن يكونَ بينَها تمايزٌ؛ فهيَ موزعةٌ في المُدنِ والأرياف، وبينَ كلِّ الطبقاتِ والفئاتِ.

والطلابُ في تلكَ المدارس يصورُونَ واقعَ بيئتِهم الاجتماعيةِ والثقافيةِ، ويعكسونَ حالةَ

أُسرِهم ومـا هيَ علَيه من فَـقرٍ أو ترفٍ، وترابطٍ أو تنافُرٍ، وإهمالٍ أو رعايةٍ.

وفي المدارس تـرَى المجتـمعَ بكلِّ أشكالِه وألوانِه وتبايُنه واختلافِه.

ومسؤوليةُ المدارسِ ـ وبخاصَّة العاملونَ فيها ـ عظيـمـةٌ؛ فهي الجـهـةُ المباشـرةُ، وهيَ الميـدانُ التنويريُّ، والمحـضنُ الإصـلاحـيُّ، ويخطئُ مَنْ يظنُّ أنَّ المدارسَ جهةٌ تلقيـنيةٌ للمعَارف وراويةٌ للعُلُومِ، بَـل هيَ مـيـدانُ التَّـربيـة والبنَاء، وهيَ ساحـةُ الرعايةِ والمعـالجةِ، وهي مكـانُ الإصلاحِ والتطويرِ.

ومن الصَّور التي تؤكدُ ما أقولُه، وتنطقُ بما أراهُ أنَّه اتصلَ بي في إدارةِ التعليمِ بالرياضِ أحدُ مديري المدارسِ، وأخبرَني أنَّه وجدَ في جَيبِ طفلٍ ـ لعلَّه في الثامنة من عُمره ـ سيجارةٌ، وقامَ بالاتِّصال بالبَيت. وكلَّمَ أمَّ ذلكَ الطفلِ، وكانَ المديرُ منفعلاً ومتأثراً، كيفَ يمارسُ الصغيرُ هذه العادةَ السيئةَ؟! وكيفَ يتربَّى هذا الطفلُ علَى ذلكَ السلوكِ المشينِ؟! وأبلغَ البيتَ انزعاجَه، وطلبَ منهم مراقبةَ الطِّفل قبلَ أنْ يستفحلَ الأمرُ. وأكدَ للأم أنَّهم في المدرسةِ سيبذلون جهدَهم لعلاجِه وتقويمِه.

ويقولُ مديرُ المدرسةِ: إنَّ المفاجأةَ كانَتْ بعدَ

انتهاء المكالمة! فقد قالت الأمُّ: على رسلك يا هذا؛ فنحنُ الذينَ شجَّعناه على ذلك؛ لأنَّنا لا نريدُ أن يظلَّ ابنُنا شاذاً في البيت، بَل نريدُ أن نعوِّدَه على ذلكَ السلوك الذي أزعجَك؛ فالبيتُ كلُّه يدخِّنُ! وأنهَت الأمُّ المكالمةَ!

وقَد أبلغَني مديرُ المدرسةِ ذلكَ الخبرَ، وطلبَ منِّي الرأيَ والمشورةَ.

وكانَ جَوابي أن يُعيدَ الكرَّةَ معَ الأبِ؛ فقد لا تكونُ المتحدثةُ الأمَّ، ولكنَّه أفادَ بخيبة أمله في الأبِ، وأنَّ الطفلَ أخبرَه أن أمَّه تُدخِّنُ.

وعندَ ذلكَ تمثَّلتُ بقولِ الشاعرِ:

إذَا كانَ ربُّ البيتِ بالدُّفِّ ضارِباً

فشيمةُ أهلِ البيتِ كلِّهم الرقصُ

وقُلتُ لأخي مُدير المدرسة: كانَ اللهُ في عَونك، ولا تيأسْ؛ فهذَا قدَرُكم رجالَ التربية، وإنَّ صَلاح المجتَمَع من مسؤولياتكم، ورعايتَه من واجباتكم. وسألتُ اللهَ للبَيت الهُدَى والصلاحَ، وللطِّفل السلامةَ والنَّجاةَ. وأكَّدتُ على مُدير المدرسَة أنْ يركِّزَ جهدَه على تَوجيه هذا الطفلِ، وأنْ يكونَ أباً لَه؛ فهذَا أسوأُ حالاً من فاقدِ الأبوَين.

وقلتُ لعلَّ البيتَ يصلحُ من خِلالِ هَذا الطِّفلِ وعَبْركم أنتُم رجالَ المدرسةِ.

وصورةٌ أخرَى حدَّثَني بها أحدُ الإخوة مديري التعليم. يقولُ: لاحظَتْ إحدَى المدارس في منطقَته أن أحدَ طُلابها يحرقُ نفسَه بكثرة التدخين، وأنَّه يستأذنُ من الأساتذة في كلِّ حصةٍ أكثرَ من مرةٍ ليخرجَ ويدخنَ.

وقد نصحَه المعلمونَ فلَم يستَجبْ، وزجرُوه فلَم يرتدعْ. وتناوَبَ المدرسون على إقناعه وتتابَعوا في إرشاده، فعجَزُوا، وسلكُوا شتَّى الطرقِ فمَا استطاعُوا.

وحينَ أعيَتهُم الحيلةُ قالَ أحدُ المعلِّمينَ: اتركُوا لي علاجَه، واسمَحُوا لي بطريقة قَد تبدُو غريبةً، ولكنَّها مفيدةٌ.. ووضَّحَ لمديرِ المدرسة

طريقتَه تلكَ.

يقولُ الرَّاوي: وسمحَت المدرسةُ للمعلِّم أن يتصرفَ بما يراهُ.

وفي اليَوم التَّالي، اشترَى ذلكَ المعلمُ كرتوناً يحتَوي علَى مجمُوعَة كبيرة من عُلَب الدُّخان التي يفضِّلُها ذلكَ الطالبُ، وأحضرَ مكتباً صغيراً، وجعلَه بينَ مكاتبِ المعلِّمينَ في الغُرفة المخصَّصة لَهم، ووضعَ الدخانَ الذي اشترَاه في ذلكَ المكتبِ.

ثُم قامَ باستدعاء الطالبِ، وحادثَه برفقٍ، وقالَ له: أعرفُ أنَّك مُبتلًى بعادةِ التدخينِ،

وأعلمُ أنكَ تجدُ حرجاً من الطلاب والمعلّمين، وأرغبُ في مساعدتك، ورفْعِ هَذه المعاناةِ التي تحرجُك، وإزالةِ تلك المرارةِ التي تؤرِّقُك.

قالَ الطالبُ: وما نوعُ المساعدةِ؟

قالَ المعلمُ: لقَد أقنعتُ مديرَ المدرسة، واتَّفَقتُ معَه على مساعدتك، ورفعِ الحرجِ عنكَ. وسوفَ نبلغُ أساتذتَكَ أن يَسمحُوا لكَ بالخُروجِ حينَ تطلبُ ذلكَ، شَريطةَ أن لا تدخنَ في الممراتِ ولا في الساحاتِ.

قالَ الطالبُ: وأينَ؟!

قالَ المعلمُ: لقَد خصَّصْنا لكَ مكاناً في غرفةِ المعلمينَ.

قالَ الطالبُ: لا تَهزَأ بي يا أستاذُ.

قالَ المعلمُ: هيَّا إلى المَكان المخصَّص وسوفَ تعرفُ أنَّني جادٌّ، وأنِّي أرغبُ في رفعِ هَذه المعاناة عنكَ.

وذهبَ الطالبُ والمعلمُ إلى غرفة المعلمينَ، وأعطَاهُ المعلمُ مفاتيحَ الطَّاولة، وقالَ له: هَذه الطاولةُ ضَعْ فيها ما لديكَ من دُخانٍ، وستجدُ فيهَا كذلكَ كميةً أحضرتُها لكَ.

وأشعلَ الطالبُ السيجارةَ الأولَى، وسرحَ بخياله، وصارَ يفكِّرُ في الأمرِ، وهَل هُو حقيقةٌ أو خيالٌ؟! ثُمَّ قامَ الطالبُ، وذهبَ إلى فصله.

وصارَ يترددُ على غرفةِ المعلِّمينَ إذا رغبَ السيجارةَ.

يقولُ الرَّاوي: واستمرَّ الطالبُ، ولكنَّه صارَ يشعرُ بالحَرجِ أمامَ المعلِّمين، وأخذَ يُقلِّلُ من هَذه العَادة. ورُوَيداً رُويداً باتَ يتقهقَرُ؛ فمخالسةُ النظرِ لَه من قِبَلِ المعلمينَ جعلتْه يتراجعُ. ومَا هيَ إلا أيامٌ وجيزةٌ وإذَا به ينقطعُ، ويبرأُ من السيجارةِ التي كانَت تحرقُه.

هذه رسالةُ المدرسة، تُربِّي وتعلِّمُ، تُقوِّمُ وتصلحُ. وكانَ اللهُ في عَونِ رجالِها وباركَ اللهُ في فرسانِها.

١١- رحلة الشتاء ورحلة الصيف

لقَـد أنفـقَت الدولةُ علَى الـتَّعلـيم الشيءَ الكثيـرَ، وازدادَتْ مـيـزانيـةُ التَّـعلـيم سنةً بعـدَ أخرَى، وانتـشرَت المدارسُ في كلِّ مَـدينة، وفي كلِّ قَرية، واطمأنَّ المسـؤولونَ عَن التَّعليم بأنَّه لا يوجَـدُ طفلٌ في المملَكة العربيَّـة السعـوديَّة دونَ تَعليـم، اللهمَّ إلاّ أولئكَ الَّـذينَ منعَـهم آباؤُهم الالتحاقَ بالمَدرَسة، وأجزمُ بنُدرَتهم.

وبهـذَا المنهَج عـالجَـت الدولةُ الأمـيَّـةَ من جُذورهَا، ولكنَّ أولئكَ الكبارَ الذينَ فاتَهم قطارُ التَّـعليـم، أو الذينَ هُم في الصَّـحـاري وراءَ مَواشيهم ولَم يتعلَّموا ـ ماذَا يُقدَّمُ لَهم؟

إنَّ تلكَ الفئَات أعدَّتْ لهَا وزارةُ المعَارف البرامجَ الخاصَّةَ، ونظَّمَت لَها التَّعليمَ المناسبَ، وفتحَت لهم المدارسَ الليليةَ، وصمَّمت لهُم المناهجَ المناسبةَ.

ونظَّمَت الوزارةُ برامجَ تعليميَّة في الإجَازات، وسَمَّتْها حَملات مَحو الأمِّية، وسيرَت تلكَ الحَملات في جَميع مَناطق المملَكة، وأقامَتْها في كُل صَيف. وكانَ المسؤولونَ في الوَزارَة يَزُورُونَ تلكَ الحَملات بينَ الحين والآخَر، ويُقوِّمونَ برامجَها، ويُعدُّونَ التقاريرَ الفنيةَ عَن تلكَ الحَملات.

ولقَد كنتُ ممَّن يزورُون تَلكَ الحَمْلات بينَ

الفَـيْنَة والأخـرَى. وذاتَ مـرَّة زرتُ إحـدَى الحَـملات المُقـامَـة في صَـيف سَنة ١٤١٣هـ، وكانَت تلكَ الحملةُ كبيرةً، ومنتدبًا لهَا مَجموعةٌ من خـيرة رجَـال الوَزارة، وصَفـوة من المعلِّمينَ المتميِّزين. وكانَ الاعـتمادُ الماليُّ المخصَّصُ قرَابةَ ثَلاثَة مَلايين ريَال، ولكنْ ينقصُ تلـكَ الحَملاتِ الجانبُ الإعلاميُّ، وعدمُ التَّركيز علَيه.

وحينَ زرْنَا تلكَ الحـملَةَ وجـدْناها في مَكان قَـصيٍّ عَن إحـدَى المُـدن الكُبـرى، ووصـلْناها بالسـيَّارة بعـدَ ثَلاث سَـاعات، حـيثُ لَم يُعبَّـدْ طريقُها بعـدُ في ذلكَ الوَقت، وقَد كانَ الأهَالي مسرورينَ بتـلك الحملة. وتوقَّفْنا عندَ مَجـموعة

من كبَار السِّنِّ يتلقَّونَ دُروساً في القُرآن الكَريم. وبعـدَ أنْ شاهدُونا بينَهم وقفَ أحـدُ الدَّارسينَ، وحـيَّا ورحَّب، وقـالَ: إنِّي أريدُ أنْ أتكلَّم باسم الأهَالي. فـأذنتُ لَه. وعندَ ذلكَ صـارَ يقفـزُ يمنةً ويسـرةً، وأعلَى وأسفلَ حـتَّى خلتُ أنَّ به مَسـاً من الجُنون، ثُم قـالَ: مـرحَـباً بكُم فـي بَلدَتنا، مَرحَباً بكُم، لقَد تعلَّمنا، مَرْحباً بكُم، ثم مرحباً.

إنَّكم سـتقـولونَ: لماذَا نسكنُ بهَـذه المنطقَـة، حيثُ لا مـاءَ ولا شجرَ، وإنمَـا جبالٌ وحـجرٌ؟! ونقـولُ: إنَّ اللـهَ يومَ خلقَ الأرضَ خـلقَ لهَـا رجالَهَا وأحـجارَها وجبالَهـا، ونحنُ رجالُ هذَا الوَادي، تعلَّقْنا به تعلُّقَ حجَـارَته، وأحببْناه حبَّ

أوْلادنا، فلا تستغربُوا بقاءَنا؛ فلكلِّ أرْضٍ أهلُها، ولكلِّ منطقَة سكانُها.

ثُم قالَ: سوفَ أقرأُ علَيكم شيئاً ممَّا أحفَظُه. قلتُ لَه: تفضَّلْ.

قالَ: قريشٌ[1] ومَا أدراكَ ما قريشٌ، لقُريش رحلةٌ بالشِّتاء، ولقُريش رحلةٌ بالصَّيف.

واسترسلَ في القَول، وازدادَتْ حركَتُه، وقَد ابتعدَ رفَاقي في الرِّحلة؛ حيثُ لَم يتَمالَكوا أنفسَهُم من الضَّحك؛ فقَد كانَ المَشْهَدُ مُثيراً، والمنظرُ مُضحكاً. وقَد تمالكتُ نَفسي، وضَغطتُ علَى مشَاعري، فلا أريدُ إحراجَ الرَّجُل،

(١) يريد قراءة سورة (قريش).

وأخشَى أنْ أضحكَ فيستاءَ، وأنْ أطربَ فيهتزَّ. كيفَ لا ورفاقُه يؤيدونَ كلامَه، وأصحابُه يباركونَ إلقاءَه ويتمايلونَ؟!

ثُم قالَ: اسمَعْ يا وكيلَ الوَزارة، التح[1] علَى محمَّد، التح علَى موسَى، التح علَى عيسَى، التح عَليهم كُلّهم.

قُلتُ: يَكفي يَكفي، فلَم أعُد أتحمَّلُ الموقفَ، وأريدُ أنْ أضحكَ ولا أستطيعُ الثباتَ، والموقفُ مُحرجٌ. والتفتُّ فإذَا بالإخوَة الزُّملاء يُغالبُهم الضَّحكُ، وقَد ابتعَدوا عَن المكَان، وصارَ كل واحد منهم يُطَأطئُ رأسَه، ولا يَنظرُ للآخَر كَي

(١) يقصد قراءة التحيات في الصلاة.

لا تَعلُوَ أصواتُهم، ويزدادَ ضحكُهم.

وقطعتُ الموقفَ بأنْ طلبتُ من معلِّمهم أنْ يضاعفَ لَهم الجهدَ، وأنْ يصحِّحَ لَهم الخَطأَ، وأنْ يقوِّم لهُم المعوجَّ. وخرجتُ من عندهم مسرعاً، ثُم اجتمَعْنا بأولئكَ القائمينَ علَى تلكَ الحَملة، وأكَّدْنا عَلى تَصحيح تلكَ الأخطَاء ومعالجَة ذلكَ الجَهل، ودعَوْنا لهم بالتَّوفيقِ والنجاحِ.